المقالة الأولى:

كتب ظلمتها عناوينها

كتب: د. عبد الرحمن بن علي بن محمد العسكر

استفتح الأستاذ/ عباس محمود العقاد في مجلة الرسالة العدد (٣٧٦) كلامه عن كتاب (علىٰ هامش التاريخ المصري) لمؤلفه/ عبد القادر حمزة باشا، بقوله: (إذا حكم القارئ علىٰ هذا الكتاب من عنوانه ظلمه كما ظلمه مؤلفه الكبير بهذه التسمية).

ولذلك فقد يظلم المؤلف كتابه بعدم اختيار العنوان المناسب له، فلا يصل إليه إلا أهل الاختصاص فقط، ومن المقولات التي يتناقلها أهل الفن مقولة: (يعرف الكتاب من عنوانه)، وقد وجدت لها أصلاً في كلام المتقدمين، حيث يُنسب لابن الرومي (ديوانه / ٢٦٥) قوله:

فافهم كلامي يا أبا مالك ... لا يشبه العنوان ما في الكتاب

وذكر الباخرزي في دمية القصر وعصرة أهل العصر (٢/ ٨٥٥) في ترجمة الأمين أبو الفتح الحاتمي فقال: (وقد عاشرته بها ـ يعني بهرات ـ فوجدته لذيذَ المخبرِ، كريهَ المنظرِ، يُسيغُ مرارةَ كراهتِهِ بحلاوةِ فُكَاهتِهِ، وفي الجملة: لا يُشبهُ العُنوانُ ما في الكتابِ).

وهذا الموضوع وهو دلالة العنوان علىٰ مضمون الكتاب من أهم ما ينبغي للمؤلف مراعاته، بل والعناية به، فإن كان العنوان هو المفتاح للكتاب، والدال علىٰ مضمونه، فإنه أيضاً أهم مسوق له لدىٰ المستفيد منه، وقد كنت في زيارة لإحدىٰ دور النشر في مدينة الرياض، وسألته عن أسوأ الكتب مبيعاً من منشوراتهم، فلفت نظري ذكره لكتابين نفيسين، لبعض المعاصرين، أبدعا في مضمون ما ألفاه، لكنهما لم يوفقا في اختيار عنوان مناسب لمؤلفهما، وأظن ذلك كان سبباً في عدم قبول القارئ للكتاب.

وكم من كتاب حُرِمَ الناسُ من الاستفادة منه، بسبب غموض عنوانه الذي لا يثير الرغبة إلىٰ الكتاب، بل ولا إلىٰ تصفحه فقط.

والعناوين كما يقال خدَّاعة، فلذلك ينبغي الاستفادة من هذا الخداع لصالح الكتاب، وقد كتب الأديب مصطفىٰ لطفي المنفلوطي مقالة له بعنوان "خداع العناوين" أدرجها في كتابه النظرات (٢/ ٦٢) فقال: (لقد جهل الذين قالوا: إن الكتاب يُعرَف بعنوانه، فإني لم أرَ بين كتب التاريخ أكذبَ من كتاب "بدائع الزهور" ولا أعذبَ من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخفَ من كتاب "جواهر الأدب" ولا أرق من اسمه).

وقد يكون الداعي لبعض المؤلفين في اختيار عناوين غريبة لمؤلفاتهم ـ وإن كنت لا أرىٰ صواب هذه الدعوىٰ ـ هو حرصهم علىٰ حفظ نتاجهم الفكري وكتبهم العلمية، فيلجؤون إلىٰ تسميتها بالعناوين الطريفة أو المسجوعة، حتىٰ أصبحت مثل هذه الكُتب أحدوثة ذلك الزمان، ولعل من ذلك كتاب محمد بن خلف ابن المرزبان الذي سماه: (فضل الكلاب علىٰ كثير ممن لبس الثياب)، فإن هذا الكتاب وإن كان اسمه طريفـًا، إلا أنه لا يدل علىٰ مضمون الكتاب بجملته، فهو في أصل تأليفه عن قلة الوفاء بين الناس، وأن الكلب صار أوفىٰ من بعضهم، لكنه وضع هذا العنوان الملفت لكتابه.

وقد كان استوقفني من خلال القراءة بعض العناوين التي لا تدل علىٰ مضمون الكتاب، ولذلك سأذكر هنا بعض النماذج علىٰ ذلك مقتصراً علىٰ كتب المتقدمين، وهي كثيرة، فمنها:

١. كتاب (**الأوراق**) لأبي بكر الصولي المتوفىٰ سنة (٣٣٥هـ) فهو كتاب مهم يحتاج إليه المؤرخ والأديب والشاعر، بل حتىٰ المشتغل بالرجال.

والصولي قد سمىٰ كتابه بهذا الاسم الذي لا يدل علىٰ أي شيء من المضمون، مع أنه يعد سرداً تاريخيـًا لأحداث عصره الذي عاشه، وتتبعـًا لأحوال الخلفاء وكل من حفظ عنه الشعر، ومع أهميته لم يعثر منه إلا علىٰ مجموعة أجزاء طبعت متفرقة.

وقد قيل إن المؤلف أخذ اسم كتابه من كتاب لمحمد بن داود بن الجراح (القرن الثالث) سماه (الورقة)، وقد قيل إن ابن الجراح سمىٰ كتابه (الورقة) لأنه جعل كل ترجمة في

ورقة واحدة، فكأن أبا بكر الصولي اقتبس هذه التسمية، فسمىٰ كتابه (الأوراق)، لأنه أطال في تراجم من تكلم عنهم في كتابه.

ومهما يكن من توقعات لسبب تسميته باسم (الأوراق)، فإن عنوان الكتاب ليس دالاً علىٰ ذلك، ولذلك وجدته مدرجًا في بعض المكتبات العامة في غير موضعه.

٢. ومن هذه الكتب: كتاب: (**أليس الصبح بقريب**) الذي ألَّفه محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، وخرجت طبعته الأولىٰ عام ١٩٦٧م في عصر المؤلف، وهو كتاب ماتع مليء بالفوائد، ولكن عنوانه لا يدل علىٰ مضمونه، فالمؤلف رحمه الله قصد من هذا العنوان التعبير عما يتمناه من إصلاحٍ في بلده تونس في مجال التعليم، ولكن ما يقصده بقلبه لا يمكن أن يعرفه المطلع علىٰ العنوان، دون قراءة له.

فالكتاب يتكلم عن إصلاح التعليم، ونبذ مما كان عليه التعليم في القرون الأولىٰ، وعن نشأة التعليمِ العربي وأطواره قبل الإسلام وبعده، وما آل إليه في القرون المتأخرة، وأسباب تأخره، وأنه راجع إلىٰ: فساد النظام العام للتعليم وفساد التآليف وفساد المعلم، ثم أوضح رؤيته لإصلاح التعليم، ولأن المؤلف كتبه علىٰ مدار ثلاث سنوات فقد تغير خلالها بعض الأمور، ولذلك قال في خاتمة كتابه: (وقد تحقق العملُ بكثير من الملاحظات والمقترحات التي اشتمل عليها هذا الكتابُ، فأسفر بها وجه الصبح الذي رجوتُ له قُربًا، ولم أفتأ كلما وجدتُ فجوةً أن أرْتقيَ بالتعليم مرتقًىٰ وإن كان صعبًا، حتىٰ قلتُ: إن الصبح أعقبَ بضحاه، ورأيت كثيرًا من الناصحين توخَّىٰ سبيلَنا وانتحاه).

ومهما يكن، فالكتاب كما أسلفت مليء بالنوادر العلمية التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

ولما صدرت طبعته الثانية بعناية عبد الملك بن محمد بن عاشور، عام ١٤٢٧ه، وضعوا للكتاب عنوانـًا إضافيـًا تحت عنوان المؤلف، فكتبوا عبارة: (التعليم العربي الإسلامي، دراسة

تاريخية وآراء إصلاحية)، ويبقىٰ أن هذا الكتاب لو سماه مؤلفه رحمه الله باسم أوضح بالمراد من هذا الاسم لكان أحسن، والمؤلف أعرف بكتابه.

٣. ومن هذه الكتب: رسالة (**الأجوبة النافعة عن أسئلة لجنة مسجد الجامعة**) للشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني رحمه الله، فإن هذا الكتاب بهذا الاسم الذي سماه به الشيخ ناصر الدين لا يوحي بأي شيء يدل علىٰ مضمونه، مع أن الكتاب عبارة عن إجابة علىٰ عدة أسئلة تتعلق بالأذان الثاني يوم الجمعة، أجاب عليها الألباني رحمه الله، مقرونة بأدلتها من الكتاب والسنة النبوية، مستشهداً عليها بآثار الصحابة، وأقوال كبار الأئمة، بنَفَس الشيخ الحديثي المعروف، ولذلك فهذه الأجوبة ينبغي أن تدرج ضمن أحكام الأذان وأحكام الجمعة.

٤. ومن هذه الكتب: كتاب (**نمط صعب، ونمط مخيف**) للشيخ أبي فهر محمود بن محمد شاكر رحمه الله، ومع غرابة هذا الاسم، إلا أن الكتاب من أبدع كتب محمود شاكر رحمه الله، وهو عبارة عن دراسة معمقة لقصيدة تأبط شراً: (إن بالشِّعبِ الذي دون سَلْعٍ) كتبه عبر سبع مقالات في مجلة المجلة، تكلم فيها عن أمور كثيرة، منطلقاً من دراسة مستفيضة لقصيدة واحدة من القصائد الجاهلية، بعبارة جزلة يتعود قارئها علىٰ الأسلوب الراقي في العبارة كما هي عادة أبي فهر رحمه الله.

والكتاب هو بحق إحدىٰ بدائع محمود شاكر، ولجزالة عبارته هو من الكتب التي قرأتها أكثر من مرة، لأن الكتاب يعلم قارئه كيف يكون النقد العميق، والدراسة المستفيضة لما يرغب نقده أو تحليله، كما أن المؤلف رد بشكل عملي اتهام الشعر العربي بالافتقاد لوحدة القصيدة، ليبعث في النفس حب اللغة والشعر، وتذوقهما، والتزود بطول النفس، والاصطبار علىٰ طريق وعر.

لكن كل هذه المعاني والمضامين غير ظاهرة في عنوان الكتاب الذي اختاره المؤلف اسمـًا لكتابه، وأظن أن الكتاب ظُلم بهذا العنوان المقتضب.

٥. ومن هذه الكتب: كتاب (**بغية المتتبع لحل ألفاظ رَوضِ المربِّعِ**) لإبراهيم بن أبي بكر العوفي الحنبلي المتوفىٰ سنة ١٠٩٤ه، وهذا الكتاب من الكتب التي حرمها عنوانها من الاستفادة منها، فإني وجدت كثيراً ممن سألتهم عن الكتاب يظنونه شرحـًا أو حاشية علىٰ الروض المربع في شرح زاد المستقنع للشيخ منصور البهوتي رحمه الله، لوجود كلمتي (روض المربع)، ولقد رأيت هذا الكتاب مدرجـًا في أكثر من مكتبة، ضمن شروح الروض المربع أو شروح أصله زاد المستقنع.

مع أن كتاب (بغية المتتبع) هو كتاب في وصف مناسك الحج، بل يُعدُّ من أوسع كتب الحنابلة في المناسك، وهو شرح لكتاب لنفس المؤلف اسمه (روض المربع في صفة حج المتمتع) كما نصَّ عليه هو في مقدمة كتابه.

وكنت أتمنىٰ لو أن محقق الكتاب أوضح ذلك في صفحة عنوان الكتاب، بما يوضح اسم الكتاب المشروح، علىٰ غرار ما سبق أن أشرنا إليه في كتاب الطاهر بن عاشور (أليس الصبح بقريب) في طبعة ابن المؤلف، وبخاصة أنها مذكورة علىٰ عنوان إحدىٰ النسختين الخطيتين التي اعتمدها المحقق وذكر أنها بخط المؤلف، فإن العنوان عليها هو (بغية المتتبع لحل ألفاظ روض المربع من مناسك الحج).

٦. ومن هذه الكتب: كتاب (**ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار**) الذي ألفه إسماعيل بن نصر بن عبدالمحسن السلاحي المعروف بابن القطعة، فإن عنوان هذا الكتاب من العناوين التي لم يوفق المؤلف لها، إذ مفهوم عنوان الكتاب أنه في نقد النساء، مع أن مضمونه ليس كذلك، فهو يتكلم عن علاقة بعض النساء بالرجال علىٰ مر التاريخ، ممن كان لهن

أثر في حياته، والعنوان إنما اقتصر علىٰ وصف النساء بالسوء، مع أنه ذكر مواضع كثيرة كانت علاقة المرأة مع الرجل علاقة نصرة وتأييد.

ثم إن ابتلاء الأخيار بالرجال الأشرار أكثر وأشد ضرراً وفتكـًا من النساء، لكن لم نجد من جمعهم في كتاب.

والأمثلة علىٰ الكتب التي ظلمتها عناوينها كثيرة، لا أطيل بذكرها هنا، لكن ثمة نوع من العناوين كانت سببـًا لحجب الكتاب عن الناس، ولعل هذا إنما وجد في وقتنا المعاصر، ولقد وقفت من خلال عملي الإداري علىٰ نماذج من ذلك، ولدىٰ الجهات الفاحصة نماذج كثيرة، وبخاصة بعض كتب التاريخ أو الأنساب التي رأت الجهات الرقابية منعها، وقد يكون السبب الداعي لذلك هو عناوينها.

ومما وقفت عليه أنه طُلب مني دراسة خلاف بين اثنين من الباحثين، انتهىٰ بحكم قضائي لصالح أحدهما، فعرض عليه الصلح فوافق بشرط أن يمنع كتاب للباحث الآخر فيه تهجم وتطاول عليه، وطُلبَ إبداء الرأي في هذا الكتاب، والحقيقة أن الكتاب لا يعدو كونه مناقشة علمية، في مسألة شرعية، سبق أن تناقش فيها السابقون، غير أن الإشكال ورد إلىٰ الكتاب بسبب عنوانه القاسي، الذي فيه اتهام للطرف الآخر وحكم عليه بأنه ذو عقيدة منحرفة، ولذلك كانت توصية جميع من عرض عليهم الكتاب أنه ما دام الكتاب بهذا العنوان فإنه لا يسمح بطبعه ولا نشره.

وأذكر أنني في عام ١٤١٢هـ عرضت علىٰ سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله كتيبـًا خرج في ذلك الوقت، بعنوان ملفت جداً، حول أحد كتب العقيدة المعمول بها، ثم زرته بعد مدة فسألته عما تم عليه فقال لي: المؤلف هداه الله أخطأ في العنوان، أما المضمون فكل يؤخذ من قوله ويرد.

والكلام عن عناوين الكتب حديث ذو شجون، وكما قال الباخرزي: (لا يشبه العنوان ما في الكتاب)، وليس العنوان كافياً لمعرفة مضمون الكتاب أو الحكم عليه،،،

وللحديث نظائر،،،

انتهىٰ.

مقالات وفوائد، د.عبدالرحمن بن علي العسكر